هل صح حديث في أن مكة مركز الأرض؟!

د. محمد دودح

باحث علمي في هيئة الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة

السؤال : هل يصح حديث في أن مكة هي مركز الأرض؟
أرجو بيان مصدر هذا الحديث ومعناه إن وُجد.

الجواب : سم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله؛ وبعد :
مستعينا بالعلي القادر ﷻ أوجز الجواب حول حقيقة ما شاع أن مكة المكرمة هي مركز الأرض على النحو التالي:
منذ ما يقارب ربع بليون سنة كانت اليابسة قارة واحدة جمعت كل القارات يحيط بها بحر واحد محيط سميت أم القارات Pangea هذا ما انتهي إليه ألفرد فيجنر Alfred Wegener وأعلنه عام ١٩١٥ استنادا إلى جملة شواهد تأكدت لاحقا ضمن نظرية انزياح القارات Continental Drift وخلاصتها أن القارة الأم قد تصدعت مع الزمن إلى قطع متجاورات، وتنزاح حتى اليوم عن بعضها البعض ببطء شديد نتيجة لتيارات الصهير، وموران الباطن تحت القشرة، فانزاحت قطع جهة الشرق، وأخرى جهة الغرب، وتميزت سبعة أبحر. وكان موقع المنطقة العربية في الوسط كما هو اليوم.

وتلتقي تلك المعلومات الحديثة مع جملة آيات في القرآن الكريم كقوله تعالى" :أَأَمِنتُمْ مَن فِي السَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ" [الملك:١٦]، وقوله تعالى: "وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مَتَجَاوِرَاتٌ] "الرعد:٤]. أما الحركة البطيئة للقارات التي تحملها تيارات الباطن إذا ميزناها بحركة الجبال، ومثلناها بحركة السحاب تحمله تيارات الهواء فإنها تلتقي تماما مع الدلالة العلمية المكنونة في قوله تعالى: "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرّ مَرّ السَّحَابِ "]النمل:٨٨]؛ لأن حركة قطع الغلاف الصخري المميز بالجبال بالنسبة لما دونها تماثل تماما حركة السحاب بالنسبة للجبال في البطء النسبي، وطبيعة الحركة .حيث أن كليهما محمول.

وأهم معلم في جزيرة العرب منذ القدم هو مكة المكرمة. وقد كانت تتوسط قوافل التجارة بين الشمال والجنوب، وتخرج منها الرحلات شمالا في الصيف، وجنوبا في الشتاء؛ وفق ما سجله القرآن الكريم مَنًّا على قريش أوسط قبائل العرب في قوله تعالى: "لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ. إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشّتَآءِ وَالصّيْفِ. فَلْيَعْبُدُواْ رَبّ هَـَذَا الْبَيْتِ. الّذِيَ أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مّنْ خَوْفٍ" [قريش]. وبالفعل طول الرحلة من مكة المكرمة المحيطة بالبيت الحرام نحو الشمال حيث تقع بلاد الشام، يماثل طول الرحلة نحو الجنوب. ومن هنا ذهب قوم إلى القول بوسطية مكة المكرمة لأمة العرب التي تتوسط بقية الأمم، وأن الكعبة التي تتوسط البيت الحرام هي (مركز الأرض)؛ أو بالأحرى التماسا لدقة التعبير ومنعا للالتباس يمكن القول أنها)وسط المعمورة)؛ لأن مركز الجسم الكروي نقطة تقع في اللب والمعلوم أن كوكب الأرض جسم كروي، لذا لا يليق هندسيا وصف منطقة على سطحه بأنها (مركز (الكوكب. واختيار مكة المكرمة إذن لتكون مبعث خاتم النبيين، وجعل قبلة المصلين على وجه الأرض نحو الكعبة المشرفة ليس مبنيا على المصادفة، وإنما هو مبني على العلم بأنها وسط المعمورة، وأنها الأنسب لانطلاق دعوة خاتم النبيين للناس أجمعين خاصة مع تفرد العرب بقريحة صافية حافظة وملكات لسانية جعلتهم يبلغوا الذروة زمن تنزيل القرآن الكريم في البيان، قال ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ: "العرب والروم والفرس.. هم سكان وسط الأرض طولا وعرضا.. (و)غلب على العرب القوة العقلية النطقية، واشتق اسمها من وصفها فقيل لهم عرب من الإعراب وهو البيان والإظهار وذلك (خاصية) القوة المنطقية.[1]"

وقال البروسوي المتوفى سنة ١١٣٧ هـ: "في بعض الآثار.. يبست الأرض في موضع البيت كأنها قبة، وبسط الحق سبحانه من ذلك الموضع جميع الأرض -طولها والعرض .-فهي أصل الأرض، وسرتها في الكعبة وسط الأرض المسكونة ,[2]"وأما الحديث الدال على أن مكة المكرمة والبيت خاصة هو أصل الأرض الذي مدت منه إلى بقية الأطراف فقد ذكره البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ في كتابه شعب الإيمان مرفوعا بإسناده عن ابن عباس قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت، ثم مدت منها الأرض. وإن أول جبل وضعه الله عز وجل على وجه الأرض أبو قبيس {بمكة} ثم مدت منه الجبال ,[3]"وقد نقله عنه الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ[4]والسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ , [5]وذكرته عدة مراجع إسلامية أخرى مثل كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر)ج٢ص٣٥) وسبل الهدى والرشاد (ج١ص١٤١) وتاريخ دمشق (ج٣٥ص١٣٣)؛ ولكن الألباني قد حققه حديثا وقال عنه: "ضعيف.[6]"

وقد ذهب كثير من المفسرين -رحمهم الله تعالى جميعا- إلى القول بوسطية مكة المكرمة، ووسطية الكعبة للمعمورة أو وجه الأرض؛ قال الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ: "قالوا الكعبة سرة الأرض، ووسطها. فأمر الله تعالى جميع خلقه بالتوجه إلى وسط الأرض في صلاتهم ,[7]"وفي تفسير قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىَ عَقِبَيْهِ] "البقرة:١٤٣]؛ قال أبو حيان الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ: "قيل المعنى كما جعلنا الكعبة وسط الأرض، كذلك جعلناكم أمة وسطاً ,[8]"وقال البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ: "أي مثل ما جعلنا قبلتكم وسطاً لأنها إلى البيت العتيق الذي هو وسط الأرض ,[9]"وفي تفسير قوله تعالى: "وَهَـذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مَّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىَ وَمَنْ حَوْلَهَا" [الأنعام:٩٢]؛ قال أبو حيان: "أم القرى :مكة؛ وسميت بذلك لأنها منشأ الدين، ودحو الأرض منها، ولأنها وسط الأرض، ولكونها قبلة وموضع الحج، ومكان أول بيت وضع للناس. والمعنى: ولتنذر أهل أم القرى ومن حولها وهم سائر أهل الأرض؛ قاله ابن عباس.. لأن الأبنية لا تنذر كقوله (واسأل القرية (لأن القرية لا تُسأل ,[10]"ومثله قوله تعالى: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىَ وَمَنْ حَوْلَهَا" [الشورى:٧]، وقال ابن عادل المتوفى بعد ٨٨٠ هـ: "قال الأكثرون بكة اسم للمسجد والمطاف، ومكة اسم البلد لقوله تعالى: "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ" [آل عمران:٩٦]،.. وسميت بكة لازدحام الناس؛ قاله مجاهد وقتادة وهو قول محمد بن علي الباقر.[11]"

وقال أطفيش المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ: "يقال وسط الأَرض مكة (و)لو بسط خيط إلى الجهات منها لتساوت إليها ,[12]"وقد تحقق فعلا أستاذ المساحة د. حسين كمال الدين حديثا أن أطراف القارات تمس محيط دائرة مركزها مكة المكرمة [13]مما يؤكد أن هذا الكتاب العزيز قد أنزل بوحي من الحكيم العليم وحده بكل شيء حتى أن تشريعاته قد بنيت على العلم بخفايا التكوين.

---

(1)الطبعة الثانية تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي - (ج٤ص٢٩١).

(2)تفسير روح البيان لإسماعيل حقي البروسوي ابن الشيخ مصطفى الإستانبولي الآيدوسي الحنفي الجلوتي أبو الفداء المتوفى سنة ١١٣٧ هـ دار الفكر بيروت 1980م - (ج٦ص٢١٧).

(3)شعب الإيمان لأبي بكر احمد بن الحسين الشافعي البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ - (ج٩ص١٢).

(4)تفسير مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ - (ج٢ص ٣٣٨).

(5)تفسير السيوطي الدر المنثور في التأويل بالمأثور لعبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ - (ج٢ص٣٨٤).

(6)صحيح وضعيف الجامع الصغير - حديث رقم ٢١٣٢ - (ج١١ص٣٨٨).

(7)تفسير مفاتيح الغيب لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ هـ - (ج٢ص٣٨٧).

(8)تفسير أبي حيان الأندلسي البحر المحيط لمحمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان أثير الدين الأندلسي الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ - (ج ٢ص٥١).

(9)تفسير البقاعي نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي المتوفى سنة ٨٨٥ هـ العثمانية حيدرأباد الهند ١٣٩٦ هـ الطبعة الأولى - (ج١ص٢٠٠).

(10)تفسير أبي حيان الأندلسي البحر المحيط لمحمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيّان أثير الدين الأندلسي الغرناطي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ - (ج٥ص٢٠٤).

(11)تفسير ابن عادل اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني المتوفى بعد ٨٨٠ هـ مكتبة عباس الباز مكة المكرمة الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ تحقيق عادل عبد الموجود - (ج٤ص٢٢٣).

(12)تفسير اطفيش تيسير التفسير لمحمد بن يوسف بن عيسى أطفيش المتوفى سنة ١٣٣٢ هـ - (ج١١ص ٢٦٨).

(13)مجلة العربي العدد ٢٣٧ أغسطس ١٩٧٨.

)الفهرسة آلية تبعا للمكتبة الشاملة في بعض المراجع.(